PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1510-1524
ISSN: 1553-6939

Narrative Metaphors: Questions of Text, Writing, and the culturally-different Other in Malek Haddad's The Flowers Sidewalk no longer answers.

Shahrazed Toufouti[1]

[1]University of M'hamed Bougara Boumerdes (Algeria).

The E-mail Author: s.toufouti@univ-boumerdes.dz

Received: 04/2024 **Published: 09/2024**

Abstract:

Based on a cultural approach, this paper draws on the colonial discourse that involves the insatiable Western greed for domination and imperial expansion that began during the Renaissance and culminated beyond Europe. Within this historical context marked by enslavement and exclusion, we shall discuss issues faced by intellectuals in relation to the center that exercises its domination over the world and the culturally different other. Malek Haddad's The Flowers Sidewalk no longer answers interrogates the history of colonialism and its impact on colonized peoples. A narrative in the colonizer's language not out of fascination with its rhetoric but as a historical reality which marginalized Arabic and imposed the colonizer's language. The novel uses narration to envision new worlds for the human's crossing exiles, thus imbuing the narrative writing with a metaphorical energy to express the unsaid. Thus, our research raises this question: What does Haddad's novelistic writing represent?

Keywords: Reality; Exclusion; Energy; Era; Intellectuals.

PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1510-1524
ISSN: 1553-6939

مجازات السرد الروائي: أسئلة التاريخ، والكتابة، والآخر المختلف في رصيف الأزهار لمالك حدّاد

شهرزاد توفوتي[1]

[1]جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر).

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مقاربة ثقافية تتكئ على منظور الخطاب الاستعماري الذي ينطوي على نهم الهيمنة الغربية والتوسع الإمبريالي حيث بلغت ذروته على عالم ما وراء أوروبا، وهو النهم الذي بدأ خلال عصر النهضة. وفي هذا السياق التاريخي المفعم بالاستعباد والإقصاء سنناقش قضايا المثقف في علاقته بالمركز الذي يمارس هيمنته على العالم، والآخر المختلف ثقافيا، حيث تستنطق رواية مالك حداد "لم يعد في رصيف الأزهار من يجيب"، تاريخ الاستعمار وما فعله بالشعوب المستَعمَرة، مستعينا بنص سردي كتبه بلغة المستعمر ليس افتتانا بصوره واستعاراته، وإنما هي حقيقة تاريخية تم خلالها استبعاد اللغة العربية، وفرض لغة الاستعمار. تستعين الرواية بالسرد وتستشرف من خلاله عوالم جديدة لكينونة الإنسان العابر للمنافي، فتكتسب الكتابة السردية طاقة مجازية للتعبير عن المسكوت عنه. وفي هذا السياق نطرح الإشكالية الآتية: ماذا تمثل الكتابة الروائية لمالك حداد؟

الكلمات المفتاحية: حقيقة؛ إقصاء؛ طاقة؛ عصر؛ مثقف.

1- مقدمة:

يثير هذا المقال من خلال ما تطرحه مقولات السرديات الثقافية عديد القضايا الفكرية والجمالية والتاريخية والوجودية والنقدية، لها علاقة وطيدة بالإبداع الروائي والسرد والاستعمار، وفي هذا السياق ينبغي أن تتطلّع مقارباتنا إلى ضرورة استحضار المرجعيات الثقافية للأعمال الإبداعية، لإنتاج معرفة نقدية تصل بين ما هو متخيّل في ذهن الكاتب يستبطن عالما لا يُتَمَثَّل إلا رمزا، وما هو واقعي مرئي يتجلّى عبر تشكلات تُحيل إلى عالم مفتوح على منطق وفلسفة واقعية لا تحتمل التأويل نقرأه قراءة مباشرة. فالكاتب لا يعبّر عن الواقع بحرفيته، وإنما يهندس أمكنة وأزمنة وشخصيات يعيد تمثيلها جماليا في لا وعيه الإبداعي، يتجاوز بها الأحداث التي كانت. تملك هذه الأمكنة ذاكرة وهوية، ولهذه الشعوب المتخيَّلة تاريخ يحتكم للتجربة الإبداعية، تحيا في فضاء خاص بها وتتفاعل في إطار علاقات داخل مجتمعها السردي، بمحمولاتها الثقافية والإيديولوجية فهي ليست معزولة عن تحقيق رغباتها

وتطلّعاتها، لأنّها أولا وأخيرا إنتاج إنساني تحيل إليه التجربة الأدبية بوصفها ظاهرة ثقافية تقف بين المسافة المتوترة بين الواقع والخيال.

إنّ الذي يستوقفنا في هذا المقام يتمحور حول السؤال الآتي: كيف تقرأ الحقيقة داخل المتخيّل السردي؟ وإذا استطردنا في طرح أسئلة أخرى فستكون كالآتي: ما هي الإمكانات الجمالية والثقافية التي ينهل منها الكاتب الروائي وهو يتأمل الحاضر ويستدعي صور الماضي وإخفاقاته؟ وفي سبيل محاولة الإحاطة بهذه التساؤلات، اخترنا المتن الروائي لمالك حداد " لم يعد في رصيف الأزهار من يجبب "، نتعرف من خلال مقاربة صوره السردية متى يصير التاريخ سؤالا عن الخذلان، والحب بلاغة العاشقين، وكيف ينظر المنفي عن المكان واللغة لذاته، فيصير هذا المنفى حاجزا بين الحياة والموت.

2 - شعرية الخطاب الروائي: مالك حداد النص المهاجر:

مالك حداد كاتب جزائري ولد بقسنطينة عام 1927 من أصول أمازيغية، صاحب الموهبة الروائية والخيال الشعري الصامد في وجه تشوهات العالم. تلوّنت كتاباته السردية بأساليب خاصة داخل نسيج النصّ منحت السرد حياة ثانية انتقل بها إلى مستوى تتحوّل فيه العبارة إلى نبع من الخيال افتتانا بالكتابة أولا وأخيرا. صاغ بلغة شاعرية علاقة متينة مع الواقع ووصف بشفافيتها أفكارا عميقة عمق رؤاه التي جعلها تتألق بتناغم كبير مع منهجه النقدي للوجود، حيث إيمانه الصادق بأنّ العالم من حوله بحاجة إلى انسجام وتآخ. بهذا المعنى لم ينفصل مالك حداد الإنسان عن مالك حداد الكاتب إذ لا يمكن أن يعيش بمعزل عن الكتابة وخلق عالم متخيَّل يعيش بالموازاة مع الواقع، فتنفتح أسرار الخيال والفنّ، وتنتج رغبة ذاتية وإنسانية لتمثيل مشكلات العالم وأزمات الإنسان، وهذا ما جعله في عملية بحث مستمر لابتكار شخصيات تجيد الأدوار التي تليق بالمسؤولية الملقاة عليها على المستوى الجمالي، واختيار الحبكة التي تليق بالعمل السردي، وتقديم فضاءات سردية ترتبط بوعي اجتماعي يحفل بأجمل لحظات الكتابة السردية يخلّد فيها علاقة مثمرة ونبيلة مع مقصده الفني، فلا " تتحدّد هويّة الكاتب إلاّ بأسلوبه الذي هو نمط من التركيب اللغوي يختصّ به، ونهج في التعبير يتّخذه في الكتابة" (إبراهيم، 2019، صفحة 89)، في سبيل إحراز أسلوب روائي خاص بالكاتب. صاغ مالك حداد كونه الروائي صياغة وازنة يقودها إحساسه النفسي بأحداث رواياته، في حوارية تسهم في ربط الصور والمشاهد السردية في سياق سلس يدفع بالكتابة إلى بلوغ نوع من التنفيس عن همّ تفنّن مالك حداد في استدراجه نحو التخلص منه، يعزى ذلك إلى عبقرية الكاتب الناظمة لمسار الأحداث بروية وهدوء، على الرغم من أنّ الوجع الإنساني الذي يكتب عنه يحسن لعبة التجلي والإخفاء.

تستوقفنا كتابات مالك حداد الشعرية منها: "الأصفار تدور حول نفسها"، و"انصت وسأناديك"، وبعض نصوصه الروائية "سأهبك غزالة" و"لم يعد في رصيف

الأزهار من يجيب"، فتضعنا أمام تجارب إبداعية تبحث عن إجابة لأسئلة الوجود يتحدى بها مالك حداد آلام الإنسانية، فتحيا النصوص بين يديه حياة الحب والتوتر والهدوء والمغامرة والجوع والموت والثورة، لأنه على يقين أن الكتابة حياة أخرى يعيشها الكاتب ويدفع ثمنا غاليا في سبيل أن يصمد وتصمد معه خياراته. فيلوذ بالمعاني العصية عن التعبير نحو التأمل والتحليل والتفسير، فتتعطل لغة الكلام وتحلّ الكتابة محلّها في سبيل إبداع عالم يليق بمأساة الكون في مواجهة الحروب، تلك هي الكتابة التي تسامى بها مالك حداد عن كل الحقائق والمفاهيم، فالكاتب جدير بإنتاج فنّ بحجم مأساة الاستعمار الفرنسي.

كتب مالك حداد رواياته قبيل الاستقلال، وصاغها بكلمات جميلة وبسيطة وعميقة عمق الأرض التي أحبّها وأحبّ شعبها، نذكر منها "الانطباع الأخير سنة1958، ولم يعد في رصيف الأزهار من يجيب" سنة 1961، تدور أحداثها بين قسنطينة وباريس، يكتب خالد بن طوبال الكاتب الهارب من الحرب في بلاده رسالة لصديقه الطالب الفرنسي سيمون تعرّف عليه في مقاعد الدراسة بقسنطينة، ليخبره بمجيئه إلى باريس، لكن يبدو أن الرسالة لم تصله فقرر مفاجأته في منزله، وعند وصوله أحسّ أنه تغيّر تجاهه. تقع مونيك زوجة سيمون في حبه، لكن خالد لم يعر هذا الحب اهتماما، لأنه كان مشغولا بكتابة أشعاره وسعيه لنشرها في الجرائد. يتذكّر خالد بن طوبال هجومات 8 ماي 1956على الشمال القسنطيني بحسرة الكاتب الثوري الذي يناضل بالكتابة، وفي الوقت نفسه يرى نفسه مقصرا مقارنة بالثوار الحقيقيين المرابطين في الجبال. يحبّ خالد بن طوبال زوجته وريدة التي تركها في الوطن. تنتهي الرواية بمأساة مزدوجة اغتيال زوجته وريدة على يدي الضباط الفرنسيين، وانتحار خالد وهو على متن القطار. تتميز هذه الرواية بخصوصية التفرد فقد كتبها مالك بن طوبال بلغة شعرية تتعرف عليها من خلال العنوان: لم يعد في رصيف الأزهار من يجيب" ليؤسس لكتابة هجينة تتداخل فيها الأمزجة واللغات والأساليب، فتزول الحدود بين العوالم الشعرية والعوالم النثرية، وكأن مالك حداد يفتح أبواب الحرية الإبداعية لإنتاج خطاب سردي ينطوي على سيرورة داخلية لإنتاج المعنى، لا يمكن إدراكه بمنهج رتيب، وإنّما الكتابة الروائية لدى مالك حداد جزء من الحياة، بل هي حياة أخرى تستوقفنا تقلباتها، تتولى سلطة التمثيل السردي التوغل في فضاءاتها.

أقام مالك حداد أقام بين صفحات الروايات والأشعار، ينتصر لملحمة الإنسان الذي يبحث عن الخلاص من قيوده التاريخية، ويسترجع عبر متونها معرفة عن صور الذات وهي تعيش تقلباتها وتشابكها مع الآخر المختلف عنها في سياق تجربة الاستعمار. رحلة الكتابة لدى مالك حداد التي لا تنتهي هي حكاية الذات عن نفسها ولغيرها ممن تتكرر مآسيهم منذ بدء حكاية ظلم الإنسان للإنسان.

رواية رصيف الأزهار نص بملامح ذات خصوصية أسلوبية وجمالية، يحتمي بالسرد لتصوير حالة المنفى والمنفيين في بلدان العدو ممن نفتهم الحروب وهجّرتهم نحو دروب الشقاء اليومي فاغتالت حياتهم الجميلة، يحتجّ على الإرث الاستعماري الذي خلفته الأنظمة السادية وراءها للشعوب المستضعفة، وفي الوقت نفسه تعيش في هذا الفضاء قصة حبّ هادئة نشأت وسط الألغام، هي قصة حبّ خالد لوريدة رمز الجزائر وقصة حبّ الكتابة " يمرّ طيف وريدة أمام ناظريه بشفتيها الورديتين وشامتيها الجميلتين" (حداد، 1999، صفحة 75). بهذا المعنى الكتابة السردية لدى مالك حداد هي الوسيلة والغاية تعيد التفكير الجمالي المتحرر من سطوة الآخر، وتذكّره بجدوى الكتابة بوصفها منتج أدبي يستثمر المتخيّل السردي لتأكيد هوية الذات واسترجاع حقّها في التعبير والتصوير لكشف حقيقة الاستعمار.

تتعيّن الكتابة السردية نصّا مثقلا بذاكرة الوطن المفقود يتخذ شكل رواية تكتب صفحاتها بوجع الأزمنة وقلق الأمكنة، وهي تبحث عن مستقر لها في متخيّل الروائي لا يعتمد استرجاع الأحداث من خلال الوصف الساكن للحدث، وإنما الانتقال بالقارئ في الزمان والمكان حيث تاريخ البطولة يحمل سؤالا أزليا: هل الكاتب يعدّ مقاوما، أما أن الثوار الحقيقيين هم أولئك المرابطون في معاقل التضحية بالجبل؟ فيتحول القارئ إلى مشارك في الثورة، تمتلكه الرغبة للتعرف على المجاهدين في أعالي الجبال لتحرير الجزائر.

3 -رصيف الأزهار يسترجع التاريخ المنسي:

ولّد الاستعمار لدى مالك حدّاد خيالا واسعا جنحت إليه عبقريته الأدبية تجاوز بها قراءة الاستعمار الخاطئة وغطرسته المسيئة للشعب الجزائري، عندما احتلّ أرضه وغيّب هويته اللغوية، هو الكاتب الذي تفصله الفرنسية عن وطنه أكثر مما يفصله البحر الأبيض المتوسط عن وطنه. نقل مالك حداد باللغة الفرنسية رسائل شفافة لقرائه دعوة ليتصالح الإنسان مع نفسه، يعكس فيها شخصية المبدع الذي يمتلك رؤية استشرافية للوضع الإنساني الذي بات في خطر بسبب الحروب، مستغلا طاقة السرد ومجازات الخطاب المتخيَّل فيرمز للصراع بين الأنا والآخر المختلف عنها ثقافيا بشخصيات خالد بن طوبال، ومونيك، وسيمون، " ترتقي به إلى صراع ميتافيزيقي بين الخير والشر، بين النور والظلام " (بوعزة، 2014، صفحة 64)، الكتب عن السماء والشمس والصباح وللوطن كيف يحبهم على طريقته، وأنّ الوطن بالنسبة إليه "مسألة شرف" (حداد، 1999، صفحة 35)، من خلال " الابتكار والتخيل وتجاوز حدود الصنعة" (حداد، 1999، صفحة 65). فالصور السردية التي ابتكرها الكاتب "لا ينبغي أن تكتب إلاّ إجلالا للصمت وتهيبا من الورق" (حداد، 1999، صفحة 61)، بإمكانها أن تستوعب الصراع الدائم من أجل استرجاع الكرامة، ومن الصراع من أجل الأرض، من أجل أن يحيا الطفل الصغير بين

أحضان والديه، ومن أجل أن ينبت الزرع في أرض طيبة ذات صباح. ينظر: (حداد، 1999، صفحة 37). شخصيات مالك حداد خالد بن طوبال لها سمات البطولة متأهبة دوما للثورة، المكان ليس ديكورا قسنطينة ليست مجرد ديكور في روايته بل هي شخصية رئيسة تسمع وادي الرمال وهو يحكي حكاية الصخر العتيق قليلة هي الروايات التي تستحق أن توصف بأنها عظيمة، ورواية " ليس في رصيف الأزهار من يجيب، رواية عظيمة نظرا لجلال القضية التي آمن بها مالك حداد وكتب عنها في هذه الرواية: "الجزائر وطن حرّ والجزائر للجزائريين". تنتمي رواية " لم يعد في رصيف الأزهار من يجيب"، لمالك حداد إلى أدب المقاومة الثقافية، كما تصوغ تأثير تجربة الاستعمار على المثقف الجزائري، حيث يقوم الكاتب بفتح سجلات الماضي الاستعماري، هذه الرواية كتابة الرّد قادمة من المستعمرات حاملة معها وعيا عميقا بهويتها وثقافتها التي أريد لها أن تندثر، لكنها تعود مع مالك حداد ثانية.

انتهج مالك حداد –لصياغة التجربة الاستعمارية– استراتيجية بديلة تقوم على استنطاق تاريخ الاستعمار، مستعينا بما تتيحه الكتابة الروائية من إمكانات فنية يوفّرها الفضاء السردي والشخصيات والزمان والمكان، ممّا يسمح بتداخل المنظور الثقافي والتاريخي في آن واحد.

قدّم مالك روايته باللغة الفرنسية لغة المستعمِر الذي سلب أرضه وعنّف أهله، رواية وضعها مالك حداد في رفوف المكتبات العربية والفرنسية إلى جانب روايات ألبرت كامو Albert Camus وقصائد جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau ، ليثبت هذا الروائي الجزائري أنّ كتابات المستعمَرين لها مكانتها اللغوية والفكرية، بل إنّها وضعية كتاب المنفى يتأملون واقع المستعمَرَات المؤلم فينتجون أدبا مقاوما، يطرحون من خلاله مسألة التمركز الاستعماري وقدرته على إزاحة المواطن الأصلاني عن منبته وجذوره. إنّ هذا الأسلوب الكولونيالي دفع كتّاب الهامش إلى كشف خبايا الاستعمار ونواياه وتسليط الضوء على تاريخه الدموي، كل ذلك كان موضع مساءلة حادة في نص مالك حداد.

"ليس في رصيف الأزهار من يجيب" الرواية الأخيرة التي كتبها مالك حداد مفعمة بذكرياته في قسنطينة، مسقط رأسه ووطن الأوجاع والانكسارات، قسنطينة الألم والأمل، "في ذلك الصباح من شهر أكتوبر عام1945 كانت قسنطينة متأثرة محمومة واثقة من أهميتها، وكانت الأشجار التي تنبت بأعجاز فوق الصخر وفي وسط الغار كئيبة، قد مسّها البرد... أمّا الضوء فما تزال بقية منه إلاّ أنه ضوء خافت، وجل... كانت السماء تعبّر عن الحسرة الأولى التي تجرّعتها وكانت البلاد تعاني مشقّة للرجوع إلى حالتها العادية بعد ربيعها الدامي" (حداد، 1999، صفحة 09). يشير الكاتب إلى جو قسنطينة الخريفي منذ البدء، فتضطرم مشاعر خالد بن طوبال بطل الرواية بمختلف الأحاسيس، منها أحداث

الربيع الدامي برصاص الاستعمار الفرنسي في 8 ماي 1945 حيث تأثر كل شيء، السماء والأرض تنزف دما، والطيور تحتج من أجل الجزائريين الذين أخلفت فرنسا وعودها معهم. عبّر السارد عن هذه الأحداث بالغضب المبطن والإصرار على البقاء مهما كان الثمن، فهذا " السيل الذي يجري بعيدا في القاع، لا تراه العين، وإن كان هديره المرعب يملأ الأسماع يمضي إلى سبيله غاضبا" (حداد، 1999، صفحة 09). تضعنا الرواية منذ البداية داخل الحدث في ثانوية المدينة حيث بدأ الحس الوطني ينمو متفجراً. إنه الوعي المبكر الذي شحن هذه التجربة الروائية بِطَاقة وطنية، تدين الاحتلال الفرنسي، وتعلن الوفاء لأرض الأجداد، و"يواصل السين سيره الهوينا وتنذر السماء بالمطر.

رصيف الأزهار خطاب سردي متخيَّل يحيل إلى كتابة متفردة، قدّمها مالك حداد ضمن رصيد غني بالعطاء: سأهبك غزالة، التلميذ والدرس، والانطباع الأخير، ودواوين شعرية حملت رؤية للعالم صاغها ذلك الشاب الأمازيغي الحر القادم من عمق الريف القبائلي، الرافض للوجود الفرنسي في أرض الجزائر. تعزف الرواية لحن الاعتراف بصمود الجزائري: "إن الجزائري لن يموت". هي الحقيقة التي ردّ مالك حداد بها على سيمون كويدج ومونيك في هذه الرواية على مدار166 صفحة.

إن باريس تموج بالناس وتتسع كل يوم لكنك يا باريس لم تفهمي شيئاً مما يجري في العالم. ورغم الأشواق والآمال وجمال باريس نفسها، فالصورة تبقى بشعة، تبقى صورة الموت والدمار الذي عرفته الجزائر على أيدي المحتلين، وحتى خيانة وريدة في قسنطينة نفسها، بماذا كان يفكر خالد وماذا كان يشغله، إنهم ناس بلده أولئك الذين أخرجوا من ديارهم، لن يعرفوا الابتسامات في المنفى. سيخيل إليهم أن كلَ يوم أطولُ من سابقه، وأكثر حزناً، سيخيل إليهم أن كل يوم يحمل مأساة جديدة. فهذا قد مات وذاك عذب، وذاك لم يسمع عنه خبر وذاك ألقي عليه القبض. في سياق هذه العلاقات الجدلية ذات الحمولة الثقافية يفتح رصيف الأزهار يدعونا لطرح سؤال له أهمية كبيرة في مجال النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي: هل كتب مالك حداد نصا مشبعا بتاريخ الصراع بين أوربا الإمبريالية والهامش الجزائري؟ هل كتب مالك حداد بصوت المقموعين وبلغة المستضعفين؟ تختزل دلالات الرواية في بنية خطابية تاريخية تستنفد طاقة استرجاع المشاهد والأحداث، هي مقاربة تنبض بالصراع بين المستعمِر والمستعمَر، وتبحث في مفهوم المقاومة الثقافية وتتأمّل الدور الذي لعبه كتّاب الشعوب المستعمَرَة التي استطاعت أن تنشئ سردا متخيَّلا يعبّر عن وضعية التهميش التي فرضتها عليها الإمبريالية، فأعادت تمثيل صورة اختلافها الثقافي عن الآخر المستعمِر في معركة جديدة قوامها الرد بالكتابة ضدّ الهيمنة الفكرية، فعندما تسترجع الشعوب المقموعة صوتها يبزغ فجر جديد للحرية، ما يفضي بها إلى امتلاك القدرة على فكفكة النسق الدلالي الكولونيالي بتعبير إدوارد سعيد من منظور ثقافي واستيطيقي في الوقت نفسه، وهذا ما عبّرت عنه الرواية حين استعان مالك حداد

بشخصية خالد بن طوبال أجبرته وضعية بلاده الخاضعة للاستعمار على اتخاذ المنفى سبيلا له لنشر كتاباته الشعرية من أجل مقابل مادي، لكن خالد لم ينسى ذاكرته وإن اختلف المكان، و"استعان بملامح الوطن المفقود على المستوى السياسي في تشكيل ملامح وطن متخيّل قوامه الذاكرة التي لا تزال تحتفظ بمفردات هذا العالم القديم". (الشحات، 2006، صفحة 91). وتساهم في إعادة بناء الذات التي يتم قتلها في الوطن الأصلي، وهذا ما تؤكّده إستراتيجية السرد المضادة حيث يسترجع تاريخ الجزائر المحتلة في المتن الروائي ويتم تمثيلها وفق منظور السارد، ففي الوقت الذي تعيش فيه قسنطينة أزمة الاحتلال، يأتي خالد ويحرّرها على مستوى الخطاب الجمالي المتخيّل، فينعم كل شبر من الجزائر بتمثيل رمزي يتم تشييده بهذه الاستراتيجية المزدوجة للتخلّص من صور الاستعمار والتخلص من هيمنته وسلطته، فالنص يطرح شخصية بن طوبال جزءا لا يتجزأ من كينونة الوطن يستلهم أفكاره وأحلامه وآلامه منه بوصفه مكوّنا ثقافيا نقرأ من خلاله تاريخ الجزائر المستعمرة بدأت ثورتها الحقيقية منذ الثامن ماي 1945، الذي فضح بنية الاستعمار القمعية، وفي هذا السياق ننظر للرواية أنها استردّت سلطة تمثيل نفسها وحرّرت صوتها بمجابهة الخطاب المعادي لها، يتجلى ذلك من خلال حوارات خالد بن طوبال ومونيك حول الثوابت الثقافية التي يؤمن بها وهي في الوقت نفسه تتعارض مع هويتها بوصفها رمزا للفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية، مما يجعلها تكتشف عالما يختلف عن عوالمها، ويفضح في الوقت نفسه نواياها، فبدل أن يخضع خالد لسلطتها وخياراتها، لقّنها أن الجزائري يقاوم من أجل وجوده ومن أجل خياراته، فحبّ وريدة الذي يسكن خالد لا يعبّر عن حالة حب قد ينتهي مع سفره وابتعاده عنها، فتأثير التكوين والتربية العربية أثرت في شخصية خالد الكاتب ولم "تكن أحلامه إلا بطولة وحنانا... يعلم خالد أن هذه المواقف تتطلب صبرا ويجب أن يضاعف حبه مرتين، وأن يزداد إيمانا وأنه يجب أن يقاوم" (حداد، 1999، صفحة 57).

يتفنن مالك حداد في كتابة تاريخ الوطن بإعادة كتابة قصته كما تمليه عليه الذاكرة وليس كما يراد له أن يكون، معتمدا على "نماذج دلالية وثقافية، تتحدّد اتجاهاتها ومواقفها بالنسق المهيمن" (بوعزة، 2014، صفحة 77)، ولدعم موقفه الجمالي والثقافي والتاريخي خلّص شخصية خالد بن طوبال من قيود السلطة الأنثوية المشبعة بالغرائز، وأبطل سحر شهوانية الغرب للشرق وسخر من تلاعباتها المبطّنة من خلال قصة حبه لوريدة الحرية، رمز الجزائر التي حرّرها رصيف الأزهار، وأعاد تشكيل صورتها على مستوى الخطاب الروائي.

4 -مجازات السرد الروائي: نحو استرجاع سلطة الكلمة:

شكّل الاختلاف الثقافي والعقائدي أساس جدلية الهامش والمركز التي أنتجها الفكر الغربي، حيث وضع الشعوب غير الأوربية في خانة الهامش، وأضحى ملمحا للاختلاف

الثقافي المستبعد من حيّز الحظوة. في هذا السياق تنبثق أهمية السرديات الثقافية في الجرأة الفنية التي يكتسيها الخطاب الروائي من حيث هو إنتاج إنساني يخترق حواجز المكان والزمان لفهم علاقة الإنسان بالعالم، ينهض على تمثيلات سردية مجازية تتجاذبها المعاني النفسية والفلسفية والإيديولوجية محمّلة بتناقضات الأنا والآخر، وقلق المكان، تتحول إلى صور سردية ذات محمولات مجازية لها تخضعها التجربة الإبداعية لتاريخ ينأى عن التواريخ الموضوعة مسبقا، يستغلّ سلطة التمثيل المجازي يندمج فيه المقدّس والمدنّس، والأسطورة والحقيقة خدمة لزمانية الرواية وتاريخها المعلن والمنسي.

تقوم فلسفة اللغة المتعدّدة -التي شكّلت قطبا مهمّا في نظرية الرواية -على أساس مفهوم الذات المتكلّمة مرتبطة بعلاقات اجتماعية لا تعترف بهيمنة الصوت الواحد والرأي المستبدّ. استقاها مالك حدّاد من كلام الفئات المهمشة من سكان الأرياف والطبقات الاجتماعية الدنيا، لغة مشحونة بوجهة نظرها حول العالم، وتحمل نقدا لاذعا وساخرا للسلطة، كما أنها على أهبة الصراع مع الآخر، فالكلمات والأشياء نفسها مجنّدة للمقاومة، ولا يتأتّى ذلك إلاّ عن طريق التعبير الحرّ الذي تتيحه الكتابة الروائية.

خصّ إدوارد سعيد جنس الرواية بالقراءة والتحليل، واعتقد أنها عظيمة الأهمية في صياغة وجهات النظر، والإشارات والتجارب الإمبريالية، بل أكّد أنّها المشروع الجمالي الذي تمثل علاقته بالمجتمعات المتوسعة في بريطانيا وفرنسا ظاهرة شيقة بصورة خاصة للدراسة، وهذا الطرح يفسّر انتشار الرواية الملازم لانتشار الإمبريالية، حيث يعبُر السرد الروائي الحدود مع ما هو أدبي وغير أدبي من خلال انتهاج استراتيجية التمثيل الخطابية، فتفتح سجلات التاريخ الكولونيالي المسكوت عنه داخل البنية الثقافية الغربية.

تتداخل العلاقة بين الاستعمار والكتابة الروائية وهذا ما أكّده إدوارد سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية، ليصبح الاستعمار مناسبة لنشأة الرواية التي هي في نظره بحاجة إلى فضاء متسع، لا إلى المدينة ومناخها وصعود الطبقة الوسطى مع انهيار الإقطاع والثورة الصناعية فحسب، فعلى الرغم من فداحة ما جرى منذ تدشين الغزوات الاستعمارية، فمع توفر ممكنات الارتحال وتعزيز احتمال النفي، ليس المكاني فحسب وإنما التخيلي والوجودي بالدرجة الأولى، حيث يتسع أفق المعنى وتتوفر شروط السرد، وتغدو المخيلة أكثر حرية وقدرة على إنتاج نصوص أكثر التحاما بالماضي وبالإنسان وآماله ورغباته بعيدا عن سيادة الاستعمار. نصوص مثقلة بآثار جرائم الحرب التي تجيزها الإمبراطورية على كل من يختلف عن شكلها ولونها. وفي الوقت نفسه يستغلّ الرواية طاقة السرد في تعزيز خطاب مضاد للهيمنة، تكمن خطورته في أنه ينتزع حق الهامش في العيش حرا، ويشتغل على تفكيك خطاب الاستعمار الذي سلب قيّد الهامش. يتجلّى ذلك في قول خالد ردا على سفسطة مونيك "تعني كلمة ليبرتييه أن ننام ساعة نشاء وأن نُنشد الأغنيات التي

نريدها" (حداد، 1999، صفحة 54). يحوّل السارد الرواية إلى فضاء تتجابه فيه تواريخ الاحتلال وأصوات تبحث عن الحرية، تجسّدها خطابات متداخلة بين سيمون ومونيك وخالد بن طوبال، تكتسب هذه الخطابات أهميتها في سياق جدل سردي وثقافي اغتنت به المخيّلة، تشكّلت به رؤية الإنسان لذاته وللعالم. عبر هذا الفهم أنتج مالك حداد روايته بلغة شاعرية عززتها صور المنفى والمجال الدلالي الذي تدور حوله فلسفة الابتعاد عن الوطن واستثمار منظومة الأفكار والمشاعر اليومية التي تستبطن الذات وتجعلها تتوق لزمن الحرية على الرغم من التحولات المضطربة التي يعاني منها زمن كتابة الرواية وزمن البحث عن حل لمأزق الاستعمار. هذه المسائل أثارتها الرواية بحكم منطق الضرورة التاريخية لخالد بن طوبال، ورد فعل منتظر من قبل الشعوب المستعمَرة هو في الوقت نفسه أحد مظاهره بزوغ ثقافة مختلفة حفزت عند تلك الشعوب طاقتها التخيلية والإبداعية لإنشاء سردي عبر مصادرة الشكل الروائي الغربي. وعلى هذا الأساس تستجيب قدرة الفن الروائي لتمثيل العالم في تنوعه وتعقيده وتأخذ مضامينها من العالم المستعمِر ـ وقد حفز تاريخ الهيمنة الاستعمارية لظهور نمط جديد في الكتابة الروائية.

تعتمد رواية رصيف الأزهار استراتيجية صوتا استرجع من خلاله سيادته وحضوره في داخل المركز فلم ينشغل بالاحتجاج فحسب ولا بمخاصمة الإمبراطورية، وإنما احتوى بداخله حوارية الماضي والحاضر وأسئلة ارتقت بتاريخ الذات الجزائرية إلى عبقرية مزدوجة تكتب اللغة الفرنسية ولا تكتب باللسان الفرنسي، فتأثير التعليم الاستعماري واللغة المستعمِرة كان جليا على ثقافة المستعمَرات وهويتها.

يتوهج رصيف الأزهار بروح المقاومة الثقافية ضدّ النظرة الدونية للشعوب غير الأوربية لم يعد في رصيف الأزهار من يجيب، قصّة متخيلة وحكاية رمزية بل تاريخ حالة نفسية تستمدّ نسقها العام من علاقات التوتر بين الأنا والآخر المختلف ثقافيا عنها، تتجاوز هذه الأزمة بالسمو بتاريخ النضال وتاريخ الوطن والافتتان بمزاياه، لرفع كل الصور المشوهة له، فتدفعها قوة داخلية لبوح الذات المستعمرة أطلقت العنان لمحاكمة السياسة الاستعمارية خط فاصل بين الأفكار والصور النمطية التي روجت لها فرنسا الإمبراطورية، هي خطاب مضاد يمتلك القدرة على تفكيك وتقويض الفكر الإمبريالي لم يعد مجرد خطاب يحمل قيمة استيطيقية تنتهي فعاليته بمجرد الانتهاء من القراءة، بل قيمة مضافة إلى رصيد أمة يقول خالد بن طوبال: " الوطن لا يستظهر كأمثولة من الحساب فهو لا يفسَّر لا يروى ... ولكن عندما ترحل هذه الوحوش المأجورة كلية التي لا تشبه الوحوش بدرجات متفاوتة إلّا أنها جميعها تستفيد من الوحشية الاستعمارية . ولسوف ترحل جميع هذه الوحوش وتنصرف من هنا جميعها، ولن تبقى في شوارع قسنطينة ولا في مراكز المقاومة ولا في المعتقلات والسجون –فإذا الأماكن العاصية المستعصية عادت حقولا والسجون أخليت ولن يبقى على حيطان شارع ايسلي وحيطان اكس ان بروفانسي

وفي رمال الصحراء الشقراء التي يأبى القمح أن ينبت وفي الثلج الأبيض بياضا تخجل البراءة من المثول بين يديه ولكن عندما تنصرف هذه الوحوش من هنا ويبقى الرجال يبقى هؤلاء الأطفال الأسطوريون، هؤلاء الأطفال الذين لم يروا رؤية واضحة جدا إلاّ أنهم كانوا يرون بعيدا جدّا. سوف يبقى الحب والطفل الذي لا يكون جائعا ولا يكون خائفا ويكون قد صار يخشى ألا يتذكّر" (حداد، 1999، صفحة 36).

5 -اللغة العربية: رحلة الوجود والمنفى:

ينتمي مالك حداد إلى جيل الكتّاب الجزائريين أمثال محمد ديب، ومولود معمري، وكاتب ياسين، كتّاب منعتهم فرنسا أن يبدعوا ويكتبوا رواياتهم وأشعارهم بلغتهم العربية الأم، لأنها فرضت عليهم تعليما باللغة الفرنسية لغة الاحتلال. لكن هؤلاء الكتاب استحوذوا على لغة المستعمِر وتحدّوا سجن اللغة وأنتجوا مرويات أثبتت جدارتهم الفكرية واللغوية، وعبّروا من خلال اللغة الفرنسية عن موقفهم الرافض لعبودية الإنسان. وجوهر هذه الرؤية الفكرية يتعلّق بموقف تاريخي يرى أنّ الهوية السردية وإن اختلفت اللغة المعبّر بها عنها "تساعد الذات في فهم نفسها بطريقة أفضل وهذه الهوية لها دور عملي تماما وهو الإجابة عن السؤال: من قام بهذا العمل؟" (ريكور، 2005، صفحة 32)، عربيا مقاوما تضمن تحديّا مستميتا للصور المتخيلة التي رسمتها الإمبراطورية. "اللغة العربية منفاي" هي الصرخة التي استهلّ بها مالك حداد روايته كتب مالك حداد الفرنسية ولم يكتب بالفرنسية , NOUS ECRIVONS LE FRANÇAIS N'ECRIVONS PAS EN FRANCAIS مالك حداد أكد من خلالها علاقته بلغة المستعمر، فهي أداة للكتابة وليست لغة تفكيره هي أشكال ورموز يتخذها للتعبير وليست فكرا، وعلى هذا الأساس فهو في تواصل دائم مع اللغة العربية وإن لم تكن لسان حاله، ويشعر بضيق وأسر اللغة الفرنسية وإن كانت لغة الكتابة لديه، وهذه الفكرة تؤكّد عداء مالك حداد للغة المستعمر ووحدها اللغة العربية تملك السيادة الفكرية وتقود حركة السرد داخل المتن الروائي، فنجد مقاطع سردية تتوهج قوّة وألقا تكشف طريق الخلاص من آفة الاستعمار والتعلق بالحرية. أدّت الإمبريالية إلى اغتراب لغوي عميق، دفع بتشكل لغة تلك الهوامش في إطار خطاب قوة قامعة ومع ذلك كانت تلك الهوامش مثيرة للجدل" (أشكروفت، 2005، صفحة 60)، ولا شكّ أنّ قدرة مالك حداد على الاستحواذ على لغة غريبة عن لسانه الأم وعن فكره وثقافته، نعني بذلك اللغة الفرنسية، هي أشبه بدرس يلقنه مبدع جزائري لجلاده الذي صادر اللغة العربية وحرم الجزائريين من تعلّمها في المدارس، وأحل محلها اللغة الفرنسية لغة مهيمنة في كل مجالات الحياة، خاصة الفكرية والتعليم، وفي هذا المقطع السردي ما يؤكّد هذه الحقيقة، يقول السارد: "الطالب خالد يلتحق بقسم الفلسفة، حيث جمعته الصدفة على مقعد المدرسة بالطالب الأوروبي سيمون كويج" من أجل دراسة آثار برجسون، وديكارت، والتنكر للشيخ ابن باديس، ولشعراء

الجزائر الذين لا اسم لهم ولا لغة" (حداد، 1999، صفحة 09)، بفضل قدرته على تغيير تراكيبها وصيغها.

يولي إدوارد سعيد اهتماما بالغا بنمط المقاومة باللغة، يعني ذلك استخدام المستعمَرين لغة المستعمَر، وإنتاجهم أدبا مغايرا بها من خلال تفجير طاقات لغة الآخر المستعمَر، لكن لصالح فكر الكاتب المستعمَر، يتجلى ذلك في الردّ الذي جاء على لسان خالد بن طوبال عندما سألته مونيك عن سبب امتناعه تقديم إهداء لزوجته، يقول خالد: "أنا عربي يا مونيك والحياء يمنعني من ذلك" (حداد، 1999، صفحة 60)، كما يتجلى في مقطع سردي آخر من الرواية، رد فعل فرنسا من جريمة محاولة القضاء على الهوية اللغوية في الجزائر، يقول صحفي فرنسي اهتم بهذه المسألة يقول: "أهناك من يكتب بالعربية بين الكتاب الجزائريين؟ هل يساور الكتاب الجزائريين جميعهم، هاجس ما تسمونه بمأساة اللغة، كما يساوركم؟ لماذا تكتب؟ أجاب خالد:" لأمر في غاية البساطة وهو أنني لا أعرف أن أتكلم" (حداد، 1999، صفحة 47).

يتجلى خطاب الاغتراب فيما يتصل ببناء المكان فأولئك الذين تبدو لغتهم غير ملائمة لوصف مكان جديد وأولئك الذين دمر الاستعمار لغتهم بشكل منهجي وأولئك الذين تم عرض لغتهم في صورة غير محترمة من خلال فرض لغة القوة للغتها ينظر: (أشكروفت، 2005، صفحة 33). وقد نتج عن ذلك في رواية رصيف الأزهار أن استخدم الكاتب لغة المستعمر بطريقة مختلفة في سياق جديد كانت قادرة على حمل تجربة الاستعمار لدى مالك حداد حيث وفق في رسم ملامح شخصية خالد بن طوبال الكاتب الجزائري الذي يعاني اغترابا مزدوجا: اغترابا مكانيا واغترابا لغويا بل صار مالكا لغة المستعمِر وليس مملوكا عنده، عبر السيطرة على لغة المركز،" فعملية السيطرة على اللغة وإعادة صبّها في استخدامات جديدة هي العملية التي تواكب الانفصال عن موقع المكانة الاستعمارية العليا... إنّها لحظة لنزع الطابع الاستعماري عن اللغة" (أشكروفت، 2005، صفحة 67). لم يخرج مالك حداد عن سياق الاستحواذ، وهو العملية التي يتمّ بها أخذ لغة المستعمِر وتهيئتها لكي تحمل حمولة تجربة ثقافية جديدة ترفض كل مقولات الثقافة الإمبريالية وجمالياتها.

يتشّكل لدى المرء انطباع وهو يقرأ "رصيف الأزهار" أن مالك حدّاد قد ألزم نفسه بمقارعة الإمبريالية المعادية للحرية باستخدام سردية مضادة ذات قوّة تقويضية عظيمة مستندا إلى الرمز وإيحاءات السردية لبلورة الحجج المساندة لمسألة الحق في الحرية، يتجلّى ذلك في الجمع بين شخصية خالد بن طوبال الجزائري المستعمر مع شخصية سيمون الفرنسي، فيبدو "الأوربي والأصلاني معا في مجتمع غير عدائي" ينظر: (سعيد، 2014، صفحة 329)، وفي الوقت نفسه تحيل شخصية البطل إلى براعة مالك حداد الفنية فيما يتعلّق بتوظيف تاريخ وطنه الأمّ ، حيث يشير بجلاء إلى أنه هو نفسه

امتداد لذلك الوطن الأمّ وأن لابدّ أن يوضع حدّ لتاريخ الاستعمار تاريخ السلب والنهب تاريخ فكفكة الاستعمار، هي الثورة المعرفية التي شنّها مالك حداد ضدّ خصمه التاريخي والثقافي من خلال الردّ بالكتابة الروائية واتخاذ سرد الذاكرة عاملا قويا ومنتجا لخطاب مناهض للسردية الكولونيالية. وهكذا أتيح لمالك حداد أن يعيد تشكيل التجربة الاستعمارية في إطار صور من الماضي وصور تتوق لمستقبل حر. يقول خالد بن طوبال "أيها السلطان المستعاد سلطان جميع الحقوق الإلهية إن الصباح سوف يأتي وهذه الجزائر التي يشتمونها في جميع تصرفاتها اليومية سوف تذكّرهم بأن الشقاق لا ينشأ أبدا من سوء التفاهم بل ينشأ من عدم الاعتراف وعدم الاحترام، وذات يوم سوف يكون الطقس على درجة فائقة من الجمال بحيث يغادر هؤلاء الحمقى البيت النظيف وينصرفون فليذهبوا" (حداد، 1999، صفحة 37).

ينبثق هذا الخطاب من ازدواج في الحقيقة تتدثّر بلغة منمقة تثأر من بنية السرد الروائي الفرنسي، إذ يتبوأ صوت السارد مقاما زكيا ويقف لفرنسا الند للند معريا الاختلاف الثقافي بين الشعب الذي استعمرته ويستمر هذا المشهد خاليا من صور الخوف أو التملق، والسبب أن مالك حداد يحسن تخيّل المعاني الإيجابية ومجابهتها مع تلك المعاني السلبية، فالمعاني الأولى تمثل خطابه "جزائر حرة" ويتجلى ذلك في اتخاذ الرمز سبيله لتحقيقه مأربه الفني والثقافي: "الحرية يعني ليبرتي يا سيمون"، وكذلك يتجلى في تمسكه بالأمل في خروج المستعمر من بلاده. وقد وفّق مالك في اختيار شخصية خالد بن طوبال لتقوم بدور الرجل الشرقي الأصيل والرجل الوطني الوفي للأرض.

إنّ سرديات مالك حدّاد مرويات تحقق انتصارا لشعب عربي مسلم اغتصبت أرضه وأخذت حقوقه بالقوة، سمحت باجتماع المخيلة بالواقع في سياق جديد تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها، فتغذو القصص كما يرى إدوارد سعيد الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها، وبهذا يكون مالك حداد قد استحوذ على السرد، واسترجع من خلال خالد بن طوبال صوته الذي وأده الضباط الفرنسيون في إحدى زنزانات التعذيب، فالسرديات الكبرى جنّدت الشعوب المستعمرة وحفّزتها على الانتفاض وكسر قيود الإمبريالية، "إنّه الحساب" عبارة صغيرة أطلقها بطل رصيف الأزهار لكن أربكت سيمون كويج وزوجته مونيك، لكن التاريخ لا يعبأ بهذين الزوجين، يحولهما السرد إلى لحظة للتأمل في الماضي المرتبط بالحرب وسلب الجسد حريته، وإعادة بناء كينونته داخل تجربة تاريخية جديدة من خلال الموت، النهاية التي فضلها مالك حداد لشخصية بن طوبال رغبة منه لإعادة إحيائه في نص روائي آخر، وقد فعلت ذلك أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد، لما اختارت أن يكون خالد بن طوبال شخصيتها الرئيسة رسام مبتور اليد، وهي حالة إعادة كتابة الذات من خلال التناص.

6 -خاتمة:

اتخذ مالك حداد الكتابة عن المنفى فعل مقاومة أنتجه فضاء يعجّ بأشكال عديدة للتمثيلات الاستعمارية التي تعتمد مفاهيم ذات صبغة إمبريالية كالهيمنة ونفي الآخر في سبيل خلق بنية خطابية تسعى إلى تصدير موقف أخلاقي وفكري وجمالي مفعم بضرورة الإيمان بالإنسان والحرية والصراع ضدّ أشكال الاستعمار. وعلى هذا الأساس تأتي روايته انتصارا للّغة العربية اللغة القومية، وللفكر العربي الجزائري، فالكاتب وإن لم يقدر على التعبير بها، فقد كانت لغة تفكير لديه، ودليل فكر الوطن الذي ينتمي إليه. وفي الوقت نفسه يحيل استعمال الكاتب لغة الاستعمار وسيلة للتعبير وللكتابة الروائية إلى هيمنة لغة المستعمر الفرنسي التي فرضها على الجزائريين بقوة السلاح، وهي بمثابة إشكالية معرفية ولغوية وثقافية تم طرحها في متن الرواية مرتبطة بمنظور كولونيالي فرض وجوده، وسلب وجودا آخر تولى السرد تقديمه من خلال استراتيجية التمثيل والتمثيل المضادة، الذي تجلى في استعمار رموز عن الحرية والمقاومة الفكرية والثقافية.

واجه رصيف الأزهار فرنسا الاستعمار بوصفها ممثلة لأعراق متهمة بارتكاب جرائم الضمير وصاغ سردية لا تفتأ تمارس حريتها في اختيار استراتيجيات المقاومة من خلال صور ومجازات تعكس حقيقة المثقف الجزائري المتمرّد على القيود التي من شأنها أن تغتال الذات أو تستعمرها، أو بصياغة أخرى: كيف يفكر الجزائري وكيف يصنع خطابا روائيا من رحم الحرمان، فقد تضافر التاريخي والدرامي والغنائي والملحمي وفي الأخير كانت الرواية/ الأرض والأرض/ الرواية هي البطل متباهيا بحريته. من خلال راو ذي مخيلة وقدرة على ممارسة الحكي وبناء وثْبَات زمانية/ مكانية تبتعد عن وثائقية النص التاريخي، يفسح المجال لحكاية هي تاريخ الذات لنفسها وللعالم. فهو يؤمن من خلال علاقة الصداقة بين خالد بن طوبال وسيمون أن الجزائري يؤمن بالتواصل والحوار بين الثقافات والمجتمعات، فتنسج حكاية تمنح طبيعة الحقيقة التاريخية.استمرت الرواية وازداد عدد كتّاب الشعوب التي خضعت للاستعمار الكولونيالي الذين دخلوا معترك الكتابة الروائية كتّاب قدموا من أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم العربي، وآسيا.كتّاب صمدوا أمام الصور النمطية المتخيلة وكسروا حاجز الخوف من خلال إعادة كتابة تاريخ استعمارهم، وقدموا أدبا تمرّد على الإمبراطوريات وعلى موجبات وشروط المركزية الغربية ناشداً إرساء سرد مغاير يقوم بتفكيك تلك المركزية في الوقت الذي يؤكد فيه اختلافه. وعلى الرغم من أن هذا الأدب يقتحم المجال الثقافي بلا ادعاءات كبيرة ومنها التمثيل والمقاومة إلاّ أنه، في الأقل، يقوم بخلخلة وتقويض المنطق الكولونيالي الذي يصرح بأن الآخر غير قادر على تمثيل نفسه كونه عاجزاً وكسولاً وبربريّا متوحّشا.

قامت الرواية بناء على الموقف الثقافي والتاريخي والجمالي لمالك حداد من الحرب بتفكيك علاقات الهيمنة التي مارسها المركز الاستعماري على الهامش المستَعمَر في إطار

مرحلة تاريخية محدّدة هي مرحلة غزو فكري وسياسي واجتماعي، ليتمّ تشكيل صورة أخرى مناهضة للصور النمطية التي تكونت في ظل علاقات القوة/ الهيمنة.

كتب مالك حداد متخيَّلا تاريخيا عن استحواذ فرنسا الاستعمار على الجزائر وفق منظور ثقافي وفني تميّز بكسر احتكار الغرب لحق السرد، وأضاء جانبا معتما، يسعى الغرب إلى لطمسه، فينكشف المتوارى والمسكوت عنه، إنه تاريخ الغزو والسطو على الهوية والإنسان، مشهد يعجّ بأبشع الصور الكاذبة التي أوهمت الإمبراطورية بها نفسها، لذا قامت الرواية بالدور الإيجابي على مستوى الخطاب في اتخاذها السرد ذرع مقاومة ثقافية أعاد من خلاله نسج أحداث واقعية وخيالية استنادا إلى مرجعيات ثقافية، تساعد القارئ في استكشاف دور الإنسان وموقعه في العالم والتاريخ، تقرب الكتابة من القارئ، حيث يبدأ الحوار بينهما لاستكمال أعباء العملية الإبداعية ، من خلال ثنائيات عديدة وليدة لحظة التأمل والتفكير الجمالي في علاقة الكاتب بالهامش ومن ذاته (مالك حداد/ خالد بن طوبال)، والرد معرفيا على المركز، بما تتيحه إمكانات الثقافة واللغة وطاقتها التعبيرية الخلاقة.

قائمة المراجع:

1. إدوارد سعيد. (2014). *الثقافة والإمبريالية* (الإصدار 4). (كمال أبو ديب، المترجمون) لبنان: دار الآداب.
2. بول ريكور. (2005). *الذات عينها كآخر* (الإصدار 1). (جورج زيناتي، المترجمون) المنظمة العربية للترجمة.
3. بيل أشكروفت وآخرون. (2005). *الإمبراطورية ترد بالكتابة، أداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق* (الإصدار 1). (خيري دومة، المترجم) الأردن: دار أزمنة.
4. عبد الله إبراهيم. (2019). *أعراف الكتابة السردية* (الإصدار 1). الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
5. مالك حداد. (1999). *ليس في رصيف الأزهار من يجيب*. (ذوقان قرقوط، المترجمون) القاهرة. مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
6. محمد الشحات. (2006). *سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967*. الأردن : أزمنة للنشر والتوزيع.
7. محمد بوعزة. (2014). *سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف* (الإصدار 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.